رحلات الحج بالغرب الصحراوي خلال الفترة الاستعمارية

د. محمد بوزنكاض *

مقدمة:

تتشكل بنية الثقافة وفق سيرورة تاريخية تدمج مكونات مختلفة تتفاعل في بلورتها عناصر مجالية وإثنية وحضارية وعناصر أخرى تتدفق على كل مجال عبر روافد مختلفة في سياق التفاعل الذي ظل يساهم بقسط وافر في تشكل الثقافة، حيث تخلق هذه الروافد ذلك المشترك في الثقافة الإسلامية التي تتأسس على خلفية ثقافية يشكلها القرآن والسنة واللغة والفقه...، وفي هذا الاطار شكلت الرحلة أداة الثقافة العربية ومظهرها البارز ومناسبة للتفاعل وتدفق المؤثرات الفكرية داخل العالم الإسلامي، فكانت هذه المؤثرات باعثاً على غنى وتنوع عناصر الثقافة الإسلامية وخلق التمايز داخل الثقافات بفعل اختلاف الأسس المذهبية والفكرية و تنوع طبيعة المؤثرات الفاعلة في بلورة الهوية الثقافية لكل قطر.

وبذلك تتبلور الأنساق الفكرية بشكل يجعلها تستوعب المتغيرات المختلفة التي تؤثر على الظروف التي تمر عبرها الرحلات الحجية، كما تؤشر التحولات المختلفة على تغير وسائل وموضوعات هذا التواصل، وفي هذا الإطارنروم دراسة تأثير اللحظة الاستعمارية على التواصل داخل العالم الإسلامي، بالنظر لما واكب الاستعمار من تغيرات عميقة أحدثت قطيعة في البنيات السياسية والثقافية للعالم الاسلامي، حيث أنهت الخريطة الاستعمارية واقع المجال المفتوح والممتد وعمل الاستعمار على مراقبة الرحلات الحجية التي انتبه الاستعمار لخطورتها الناتجة عن تدفق الأفكار والتيارات بمافيها تلك المعارضة للاستعمار والمحرضة على مقاومته، فأحدث هذا التحول تغيراً عميقاً شمل آليات وقنوات التواصل ومسالكه وموضوعه.

لقد حظيت الرحلة الحجية بنفس الأهمية في مجموع العالم الإسلامي، فكانت لها الوظائف ذاتها، لذلك سنحاول بحث هذه العناصر من خلال الاشتغال على منطقة الغرب الصحراوي كنموذج لباقي أقطار العالم الإسلامي، بالنظر بداية لامتداد هذه المنطقة على أقطار إسلامية متعددة تشمل موريتانيا والمغرب والجزائر ومالي، فهي وحدة حضارية تسود فيها قبائل ناطقة باللسان الموسوم بالحسانية ويغلب عليها نمط البداوة بفعل امتدادها داخل مجال الصحراء الكبرى، حيث تشمل الجزء الواقع غرب الصحراء الكبرى وتشغل شريطاً ساحلياً ممتدا على المحيط الأطلسي، إذ تبدأ منطقة الغرب الصحراوي من وادنون بجنوب المغرب إلى الضفة اليمنى لنهر السنغال ومن المحيط الأطلسي غرباً إلى الغرب الجزائري تندوف والشمال الغربي المالي أزواد وأروان وتنبوكتو، حيث درج الباحثون على وسم المنطقة باسم بلاد البيظان[٢] التي تشكل نموذجاً للأقطار العربية التي حافظت على التواصل مع المشرق عبر الحج، بالرغم

(*) استاذ باحث كلية الآداب والعلوم الانسانية، ابن زهر، اكادير، المغرب.

٢- درج الباحثون على استعمال اصطلاح بلاد البيظان في مقابل بلاد السودان للتمييز بين مجالين متداخلين؛ مجال الصحراء الذي تستوطنه قبائل من البيضان صنهاجة أو عرب ومجال السودان الغربي الذي تشغله الشعوب الافريقية، وتقدم المنطقة بموقعها في اقصى المغرب الاسلامي تجربة حضارية عربية

من موقعها النائي في أقصى المغرب الإسلامي، حيث ستحظى الرحلة في المنطقة بمكانة استثنائية باعتبارها وسيلة لانفتاح هذه المنطقة النائية على باقي أقطار العالم الاسلامي، لذلك سنحاول في هذه المساهمة مساءلة تأثير الاستعمار ومخططاته على الرحلات الحجية ومن ثم كيف أثر الاستعمار على التواصل بين الغرب الإسلامي وباقي أقطار العالم الإسلامي؟.

الفصل الأول: الحج في تجربة البيضان بالغرب الصحراوي

١. دور المؤثرات في بلورة الأنساق الثقافية بالغرب الصحراوي

فرض موقع الغرب الصحراوي عزلة جغرافية على هذا المجال الممتد داخل الصحراء الكبرى والمتاخم لإفريقيا الغربية، مما جعله موضوعاً لتداخل مؤثرات مغربية إسلامية وأخرى إفريقية صنعت للمنطقة هوية حضارية متميزة تشكل المشترك الثقافي والمذهبي والاجتماعي للمجال الموسوم بالغرب الصحراوي، إذ جسد هذا المجال وحدة حضارية تستبطن تمايزات واختلافات لا تصل درجة القطيعة، مما جعله يجسد طبيعة المجال الإسلامي المفتوح والممتد والذي يعيد إلى الأدهان ماضي الدولة الأمة قبل أن يعيد الاستعمار رسم خريطة المنطقة ويفككها إلى مجالات تتحدد امتداداتها على أساس موازين القوى، مما يفرض دراسة هذا المجال استنادا إلى واقع تاريخي واختيار منهجي ينظر إلى واقع الدولة القطرية كتجربة متأخرة اخترقت تاريخ المجال ويجب ألا تتحول إلى منطق موجه للكتابة التاريخية في تاريخ العالم الإسلامي.

إن الثقافة بالمنطق البروديلي بنية تنتمي إلى الزمن الطويل وتتشكل وفق سيرورة ممتدة، فهي بناء مستمر ولامتناه تشتغل خلاله آليات مختلفة تضم استبطان وتكييف وتغيير يشمل الأنساق والقيم والأفكار المكونة لبنية الثقافة بأشكالها العالمة والشعبيةالمكتوبة والشفهية، ويشكل الزمن والمجال محددات أساسية لعملية البناء التي تخضع لها هذه العناصر، وهو أمر طبيعي باعتبار الأنساق الفكرية إفراز موضوعي لشروط تاريخية معينة، كما تشكل المؤثرات والروافد الفكرية التي تتدفق على كل مجال مصدرا لتشكل كل ثقافة في سياق حتمية التفاعل والتثاقف التي تؤطر علاقة كل مجال بمحيطه، مما يفسر تأثر هذه المؤثرات على مستوى طبيعتها وكثافتها باللحظة التاريخية وخصائها التي قد تؤشر على تطور هذا التواصل و تطرح أمامه اكراهات ومعيقات مختلفة.

وتشكل ظروف وشروط التواصل انعكاساً ضمنياً للشروط التاريخية لكل مرحلة، مما يفسر تأثر التواصل في شكله العام بالظروف السياسية والاضطرابات المختلفة التي قد تسم كل مرحلة، لذلك فقد استبطن التواصل العربي _العربي الذي يمر، في الغالب، عبر الرحلة الحجية المتغيرات التي ميزت

واسلامية متميزة، حيث أسفر تفاعل بلاد البيظان مع محيطه عن تشكل حضارة اسلامية ذات اشعاع كبير يسود مابين وادي نون شمالا ونهر السنغال جنوبا، ومن المحيط الأطلسي غربا إلى الغرب الجزائري (تندوف) والشمال الغربي المالي (أزواد وأروان وتنبوكتو)، وهو مجال تحرك القبائل المعروفة بالقبائل البيضانية، إذ تتميز هذه المنطقة بخصائص ثقافية واثنية وحضارية مميزة، حيث نتناول في هذه الورقة جانبا من مساهمة هذا المجال في التواصل وتأثر هذه العلاقات بالتحولات التي عرفتها المنطقة خلال الاستعمار. انظر :محمدو بن محمدن، المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر: قراءة في الرحلات الاستكشافية الاروبية، معهد الدراسات الإفريقية، جامعة محمد الخامس، الرباط،٢٠٠١، ص: ٢٢٥.

– Paul Marty; «Étude sur l'islam et les tribus maures: les Brakna", E. Leroux, Paris, 1921

العالم الإسلامي الذي عرف منذ القرن ١٩ تحولات عميقة بلغت درجة إحداث قطائع عميقة في المجتمع الإسلامي ومجاله وبنياته المادية والثقافية، حيث انطلق تنزيل المخطط الاستعماري من تفكيك المجال وتوزيعه إلى مجموعة مناطق نفوذ بين القوى الاستعمارية على أساس موازين القوى، فرسمت هذه السياسة منطقاً جديداً امتد إلى خلق مجموعات وقوميات جديدة وبنيات صغيرة بل رسمت رواية جديدة للتاريخ انتقلت إلى توجيه راهن العالم الإسلامي الذي انتقل، نتيجة لذلك، من ماضي الدولة الأمة إلى حاضر الدولة القطرية، وهو واقع نسخ ماضي المجال المفتوح والتواصل السلس المترتب عن تدفق مرن وسريع للقيم والمؤثرات الفكرية، فأشرت إعادة رسم خريطة العالم على قطيعة أثرت على المستوى السياسي و شمل تأثيرها الأبعاد الاجتماعية والفكرية.

لقد أحدث انهيار التجارة الصحراوية تحولاً عميقاً في تاريخ مجال الغرب الإسلامي والصحراء الكبرى بشكل خاص، حيث فقدت هذه الأخيرة أدوارها على إثر التحول المادي المتمثل في ظهور التجارة الأطلسية التي خلقت لمنطقة الساحل أدواراً مهمة في تاريخ المجال وتراجعت أدوار الصحراء بفعل التحول المادي الذي أفرز تحولاً حضارياً تجلى في تراجع اهتمام الأنظمة السياسية بالمنطقة واندراس الحواضر الكبرى، الأمر الذي نفترض أن يؤثر سلباً على حركة الحجاج التي استفادت من دينامية القوافل التجارية خلال الحقبة الوسيطة، حيث أرخت الرحلة الحجازية الموسومة بـ"المنى والمنة" لجانب من تأثر الحج بالتحول المتمثل في انهيار التجارة العابرة للصحراء في قول صاحبها إن طريق الحجيج أصبحت خالية من العمارة والحواضر " **بين وادان وتشيت وأحرى بين وادان وتنبكتو لا عمارة ولا أدنى من ذلك**"[٣]، وذلك مقارنة مع العصور الوسطى، حيث كانت التجارة الصحراوية تضفي دينامية اقتصادية أثمرت نمو وازدهار الحواضر داخل هذه المجالات الصحراوية، حيث كانت طريق الحج خلال العصور الوسطى" **مسبولة حتى أنك لا تبيت إلا في عمارة ولا تقيل إلا في عمارة من كثرة العمارة**"[٤]، وهو معطى يؤشر على تحول عميق وشامل أثر سلباً على حركية التجار والحجاج.

إن الموقع النائي للغرب الصحراوي لا يعني عزلته، ذلك أن المجال ظل منفتحاً على محيطه ومندمجاً في سياق التحولات التي عرفها المجال المتوسطي ومتأثراً بما يعرفه العالم الإسلامي والغرب الأوروبي، مما يفسر عمق التأثير الذي أحدثته لحظتان تاريخيتان ارتبطت الأولى بانهيار التجارة الصحراوية ونتائج الكشوفات الجغرافية وتجسدت اللحظة الثانية في الاستعمار الأوروبي، حيث كان للحدثان دوراً كبيراً في تاريخ الغرب الصحراوي بشكل أثر على الرحلات الحجية وظروف التواصل ومرونته.

٢. الحج في تجربة المسلمين بالغرب الصحراوي:

تمتد منطقة الغرب الصحراوي في أقصى بلاد المغرب الإسلامي، مما منحها وضعاً خاصاً بفعل الشروط الطبيعية الناتجة عن موقع المجال داخل الصحراء الكبرى والبعد عن مركز الدولة الإسلامية في المشرق، غير أن ذلك لم يعزل المنطقة عن التدفق الحضاري والفكري الذي ظل يربطها بباقي أقطار

---

[٣]- الطالب احمد المصطفى بن أطوير الجنة، رحلة المنى والمنة، تحقيق ودراسة: حماه الله ولد سالم، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٣، ص:١٥٣.

[٤]- الطالب احمد المصطفى بن اطوير الجنة، مرجع سابق ، ص١٥١

العالم الإسلامي، كما يفسر هذا الموقع بنية الثقافة العالمة وطبيعة المؤثرات التي غلب عليها الرافد المغربي والإفريقي ومنح للصحراء موقعاً متقدماً في نقل المؤثرات الإسلامية إلى إفريقيا الغربية.

لقد وسمت البداوة حضارة مجتمع الصحراء وتحولت الرحلة إلى غاية تتحصل بفضلها كل مقومات المادية والثقافية للحضارة، حيث جعل نمط الانتجاع السائد الرحلة أداة لخلق التراكم المادي المفترض في مجال موسوم بالندرة، فارتقت الرحلة لدى البدو "العرب أو من في معناهم" من وسيلة إلى غاية تستند على اعتبارات مادية بل وسيكولوجية، وهو ما عبر عنه ابن خلدون في قوله إن "غاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة"[٥]، إذ لا يمكن التأصيل لأي ظاهرة أو بعد من أبعاد الحضارة دون البحث في دور الرحلة في نشأة تلك الظاهرة وتطورها[٦]، فالعلم و الإنتاج او غيره غايات لا تتحقق بغير الرحلة، لذلك فرضت خصائص الصحراء إعمال الرحلة للحصول على أسباب ومقومات الحضارة، فلا علم دون إعمال رحلات داخلية بين المحاضر أو المدارس العتيقة ورحلات خارجية، وهو واقع عبر عنه أهل الصحراء في قولهم بارتباط "طلب العلم بالهجرة والاغتراب" في الصحراء[٧]، مما يفسر لدينا منزلة الرحلة الحجية التي استبطنت لدى أهل الصحراء غايات علمية ومعرفية تفسر منزلة الرحلة لدى بدو الغرب الإسلامي وإقبالهم عليها بدرجة فاقت غيرهم من أهل المغرب والمشرق.

لقد أعطى موقع الصحراء خصوصية لماهية تواصلها مع محيطها الإسلامي، وفي هذا الإطار شكل حج البيضان تجربة استثنائية مقارنة مع باقي امتدادات العالم الإسلامي، فإلى جانب أهميتها في تزويد المجال بمقوماته الفكرية والروحية أحاط البعد والمشقة الرحلة الحجية والتواصل عموماً بإكراهات بلغت درجة إسقاط بعض العلماء فريضة الحج عن البيضان بفعل ما يترتب على ذلك من تضييع للضرورات المقدمة على الحج مثل الحياة والصلاة وغيرها، وقد عبر العالم محمد ألمامي عن ذلك في قوله إن " فريضة الحج ساقطة لأسباب عديدة في تلك المدة عن أكثر الشناقطة"[٨]، ويفصل محمد ألمامي في هذه الأسباب في قوله إن "قيل كيف يسقط شي جماعي بمفسدة، قلت الحج جماعي الوجوب وأسقطه كثير من العلماء للمخاطرة بالنفوس على أهل المغرب، قيل ومن كان آفاقي... قلت...أجمع المحققون

---

[٥]– عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: محمد صديق المنشاوى، دار الفضيلة للنشر، القاهرة،٢٠٠٥، ص:١٩٠

[٦]_ أهمية الرحلة في الصحراء تجعلها مدخل لدراسة تاريخ الصحراء الاطلنتية والغرب الصحراوي عموما، ذلك أن المجال ظل مفتوحا أمام هجرات داخلية ميزت تدفق الافراد في اطار الهجرات الموسمية أو الدورية بحثا عن الكلا والماء أو اضطرارية في إطار "الزوكة" أو الهروب الذي يفرض على كل صاحب فعل مُجرم بموجب العرف أو الدين، فزودت هذه الهجرات القبائل بالأفراد في سياق محيط قبلي يعتبر الكثرة العددية محددا لقوة القبيلة، فأسهم هذا النوع من الهجرة في تشكل الخريطة القبلية للمجال وتوجيه تاريخه السياسي، كما غذت الحياة الثقافية لشمال الصحراء بهجرات لعلماء ومتصوفة، فخلقت هذه الهجرات للمجال امتدادات في سوس والشمال وكذلك بالجنوب والشرق، حيث يشكل موضوع الهجرة في تاريخ الصحراء افقا معتبرا للبحث والدراسة.

[٧]– أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، الطبعة الرابعة، مكتبة الخانجي بالقاهرة ومكتبة منير موريتانيا، مطبعة المدني، مصر،١٤٠٩/١٩٩٩، ص: ٤٣٩.

_ ماءالعينين بن العتيق، الرحلة المعينية، تحقيق وتقديم: محمد الظريف، الطبعة الأولى، دار النشر والتوزيع، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان،٢٠٠٤ ، ص٣٧[٨]

ممن حج من علماء المغاربة والمصريين أن السفر في هذا الزمان للحج لايجوز لا لضرورة ولا لغيره، وذلك لما يقع من تضييع الصلوات الخمس والمخاطرة بالنفس والأموال والفروج والله أعلم"[٩].

وقد استند هذا الموقف الذي بلغ درجة إسقاط فريضة الحج عن أهل الغرب الصحراوي على واقع طبيعي وامني انتفت معه شروط الحج الذي خرج عن دائرة قدرة المسلمين، كما ارتكز على واقع محلي أفرز فشل عدد من الرحلات الحجية التي انتهى بعضها بهلاك الحجاج أو مرضهم، في المقابل شكل نجاح الرحلات التي انطلقت من هذا السياق كرامة نسبت لأصحابها كماهو الشأن بالنسبة للشيخ ماء العينين الذي كان أول من استطاع أن يعود سالماً من رحلته الحجية[١٠].

صاحب الاستعمار تطور وسائل النقل وتحسن شروط الأمن نسبياً، مما أنتج شروط جديدة انتفت معها عوائق الرحلة الحجية، حيث دفع هذا الأمر بعض العلماء إلى القول بنهاية الدعوة القائلة بسقوط فريضة الحج عن مسلمي تلك البقاع نتيجة لسقوط الإكراهات التي كانت تعترض سبيل الحجاج خلال المراحل السالفة بشكل جعلها مبرراً لإسقاط هذه الفريضة، وهو موقف الشيخ ماء العينين بن العتيق وغيره من علماء النصف الأول من القرن العشرين[١١]، بما يدفع إلى الاعتقاد بأن سبب هذا التحول هو التطور الذي واكب دخول الاستعمار على مستوى وسائل النقل وتوفير الأمن بكسر شوكة قبائل البدو.

٣. اكراهات التواصل داخل العالم الإسلامي: (إكراه اللغة انموذجا):-

شكل موسم الحج تجمعاً معتبراً لأعداد غفيرة من المسلمين ومناسبة استثنائية للمسلمين من مختلف الأمصار وموسماً دينياً وثقافياً جامعاً للمسلمين[١٢]، فزود هذا التواصل امتدادات العالم الإسلامي بمختلف المقومات الفكرية والروحية، كما شكلت مناسبة أداء فريضة الحج فرصة لعدد من العلماء للحصول على هوية صوفية جديدة ينقلها إلى غرب الصحراء فزود المجال بعنصر جديد أسهم في غنى وتنوع الخريطة الصوفية للمجال، مما يدفع إلى التساؤل عن شروط وسياقات هذا التواصل والإشكالات التي يطرحها، والإجابة عن هذا التواصل تشكل مناسبة لإثارة قضايا التاريخ الاجتماعي التي تعرض لها هذه الرحلات التي شكلت مناسبة لاستكشاف شعوب وقبائل كثيرة كان للحجاج فرصة الاتصال بها في الحجاز أو على طول مسار الحج بشكل جعل من الرحلات الحجية متوناً غنية بعادات وتقاليد شعوب كثيرة ومعلومات اثنوغرافية قيمة تتيح المساهمة في إعادة تركيب وكتابة تاريخ أقطار العالم الإسلامي.

لقد أولى العلماء الذين تصدوا لتدوين رحلاتهم أهمية خاصة لوصف ما اعترض الحاج في طريقه مركزين على الإكراهات التي تضفي صعوبة على هذه الرحلة التي تكتب بغاية التبرك والإفادة وشغل حالة الفضول التي تحصل لدى المسلمين التواقين لزيارة هذه البقاع، فاستغرق الحديث حيزاً مهماً عن قطاع الطرق والحرابة المستشرية في هذه الأوساط والأمراض والأوبئة والمعتقدات الغريبة عن منطوق

---

[٩] ١ــ محمد المامي، جمان البادية،مخطوط في خزانة باب ولد محمادي الخاصة، نواكشوط، ص٢٨

[١٠] ــ ماءالعينين بن العتيق، مرجع سابق ، ص: ٣١٨

[١١] – ماءالعينين بن العتيق، مرجع سابق ، ص:٤٠.

[١٢] ــ الخليل النحوي،"بلاد شنقيط... المنارة والرباط"، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٨٧، ص:٣٤٤.

الدين والحالة العلمية والروحية واساطينها إلى غير ذلك من الإكراهات والفوائد التي يجدها الحاج في طريقه، لذلك كانت الرحلة قناة لانفتاح الصحراء على المناطق والحواضر الآهلة ديمغرافياً، مما جعلها قناة لانتقال الأوبئة إلى هذا المجال الصحراوي الذي يبدو أنه أقل تأثراً بهذه الأمراض بفعل الحرارة وضعف الاحتكاك الذي جعل المنطقة في عزلة عن عدد من التفاعلات، فقد أورد صاحب "الرحلة الوزانية" إشارة فريدة عن ركب حج البيضان الذي صادفه في طنجة،في قوله إن الحجاج البيضان كانوا "خائفين من الألم الجديد أن يصيبهم بالحجاز لكونه لا يصل لبلدهم ولا يعرفه أحد منهم ببلده"[١٣]، مما يعني أن تأثير الرحلة تجاوز الأبعاد الفكرية والروحية إلى الجوانب الاجتماعية.

وبالموازاة مع ذلك استرعى انتباهنا حديث بعض الرحلات عن اكراه التواصل الذي واجهه الحجاج الوافدين من غرب الصحراء في لقائهم مع عدد من الشعوب والقبائل التي وجدوا صعوبة في التواصل معها، حيث يعرض ابن اطوير الجنة لجانب من هذه المشقة في وصفه للطريق في منطقة سوس ابتداء من اقا، إذ يذكر تنقله من قرية إلى أخرى في "تلك الجبال، ومن يد الى يد ونحن لا نرى إلا الشلوحة الذين لا يعرفون لغتنا ولا نعرف لغتهم، ومع ذلك والحمد لله لا نرى منهم الا الاحسان"[١٤]، وهو امر قد سيتكرر بدون شك مع باقي القبائل التي لم يكن للحجاج من اهل الصحراء سابق معرفة بهم او اتصال مباشر بالرغم من أن الشيخ نفسه يقر بان اصوله من حاضرة اغمات التي حرص على الوصول إليها والسؤال عن أبائه الاوائل المنتسبين لها.

وقد ظل إكراه التواصل قائماً في علاقة البيضان مع باقي الحجاج المسلمين القادمين من أقطار متفرقة خاصة من افريقيا جنوب الصحراء، حيث تحدث الحاج محمد أمين الشنقيطي عن الأفارقة مشيراً إلى أنهم " لم يفهموا كلامنا ولم نفهم كلامهم" قبل أن يجدو شخصاً يفهم العربية قليلاً، فحصلت بينهم المفاهمة[١٥]، مما يعني أن هذه الاختلافات اللغوية لم تكن عائقاً حقيقياً يرقى لمستوى الاكراهات الأخرى التي أجلت أو الغت الرحلات الحجية أو حدت من تدفقها بقدر ما تتيح ملامسة أفق جديد للبحث يبتغي لفت الانتباه إلى الجانب اللساني في التواصل داخل العالم الإسلامي.

يشكل التواصل سيرورة ممتدة تستهدف الثقافة والمجتمع كبنيات تستوعب التغيرات ببطء شديد، مما يفترض إعمال مقاربات أخرى لبحث تأثير التواصل على المجتمعات الإسلامية، حيث يشكل المقترب الانتربولوجي واللساني والدراسات الثقافية بدائل يمكن أن تمكن دراسة هذا الموضع من عمق منهجي يكشف عن حجم التأثير والتأثر الذي خلقه التفاعل بين الشعوب والمجتمعات العربية في سياق التعايش والتداخل الذي تأطر بالمجال المفتوح وأعطى للتواصل أبعاداً أخرى جينيالوجية ولسانية متعددة.

٤ تحولات مسار الحج خلال الحقبة الاستعمارية

---

[١٣]– أحمد بن العربي، الرحلة الوزانية الممزوجة بالمناسك المالكية، مخطوط بمؤسسة علال الفاسي،عدد٣٤٩، الرباط، ص:١٧.

[١٤]_ الطالب احمد المصطفى بن اطوير الجنة، رحلة المنى والمنة، تحقيق ودراسة: حماه الله ولد سالم، مرجع سابق ، صص٢٨_٢٩

[١٥]– – الشيخ محمد أمين الشنقيطي، رحلة الحج إلى بيت الله الحرام، تحقيق: محمد المختار بن محمد أمين، طباعة ونشر دار ابن تيمية، القاهرة، رجب ١٣٩٩، ص:٣٥.

تتيح دراسة التحول الذي عرفته مسالك الحج التعرف على سيرورة التواصل والتطورات التاريخية التي عرفها المجال موضوع الدراسة بالموازاة مع طبيعة المؤثرات التي تتدفق على المجال والناتجة عن المحطات التي يمر عبرها الركب الحاج، فقد خلق ارتباط الشناقطة بركب التكرور خلال الحقبة الوسيطة أشكالاً امتد للتشكيك في الهوية العربية والمغاربية لبلاد البيضان بمناسبة المشكل الذي انبثق على خلفية المعارضة التي أبداها البعض إزاء استفادة البيضان من أوقاف المغاربة بالمدينة المنورة، حيث تعكس هذه القضية التباس صورة المجال في الذاكرة العربية وتأثرها بسياق تاريخي تميز بقوة ممالك مالي وسنغاي وتشكل ركب حج ينسب للتكرور[١٦] ويتعلق به من أراد الحج من البيضان، مما يعني إمكانية دراسة تاريخ التواصل عبر تطور الركب الحاج.

لقد أرخ ركب التكرور للتواصل خلال التاريخ الوسيط، إذ يبدو أن هذا الركب كان يمر عبر الطريق الشرقي التي ستفقد مكانتها لاحقاً لصالح طريق أخرى تمر عبر الغرب مر عبرها الركب الشنقيطي الذي كان ينطلق سنوياً من حاضرة شنقيط، فيتعلق به كل من أراد الحج من سائر الآفاق[١٧]، ويمر عبر حواضر المغرب الأقصى مثل مراكش وفاس، وقد تميزت هذه الطريق بقصرها مقارنة مع الطريق الشرقي الذي يتسم بكثرة الإكراهات الطبيعية والأمنية[١٨]، إلى جانب كثرة القبائل الوثنية الأمر الذي كان باعثاً على تردد الشيخ عمر بن سعيد فوتي في اتخاذ مسار الطريق الشرقي قبل أن يضطر للرحلة عبره[١٩].

لقد عمقت الطريق الشرقية علاقة البيضان بالسودان الشرقي، حيث يعرض الشيخ محمد أمين الشنقيطي بشكل دقيق لمراحل هذه الطريق التي اخترقها في رحلته الحجية التي بدأت من شنقيط نحو كيفة في اتجاه فاوة ونيامياليجر ومداوا و مرادى و فورلمى وكسرى واتيه وأم حجر وأبشة وأدره بين تشاد والسودان وصولاً للسودان بالجنينة وتوقف بأم درمان لينتقل عبر السفينة إلى جدة ومنها إلى مكة المكرمة[٢٠].

شكل الحج بالنسبة لأهل الصحراء مناسبة لتكريس التواصل والارتباط بالشعوب الافريقية والعربية، ذلك أن تزايد أهمية الطريق الغربي لم ينه أدوار طريق الشرق في التواصل، حيث ظل بعض الحجاج يختار الطريق الشرقية إلى غاية القرن ١٩، وهو ما يفسر حج الشيخ محد أمين الشنقيطي عبره، غير أن اللحظة الاستعمارية ستضع نهاية للشكل التقليدي للرحلة والتواصل عموماً عبر توقف دور الركب الحاج

١٦ــ التكرور منطقة أو اقليم من اقاليم مملكة مالي أصبح يحيل على المنطقة التي تشمل جزء من بلاد البيظان ومعظم إفريقيا الغربية المسلمة، وهو أمر تكرر في تاريخ المجال، حيث إن معظم الاسماء التي أطلقت على بلاد البيضان أو افريقيا الغربية كان مصدرها المشرق، فالمشارقة هم أول من أطلق على المجال اسم بلاد شنقيط وعلى السودان اسم بلاد التكرور، مما يحيل على دور المشرق في ترسيم تاريخ المجال واسماءه التي تحيل في الغالب على صورة الغرب الصحراوي وافريقيا الغربية في الذاكرة المشرقية ، كما تبنى الأفارقة انفسهم هذه الاسماء التي ورثوها عبر كتاباتهم مثل كتاب التراجم الموسوم بـ " فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور "، وكتاب محمد بلو المعنون بـ " إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور ".

١٧ – أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم ادباء شنقيط، مرجع سابق ، ص: ٤٦٦.

١٨ – محمد ولد محبوب، التواصل الثقافي بين المغرب وبلاد شنقيط، قراءة في مقررات المحضرة ورحلات العلم خلال القرنيين ١٢ و١٣هـ، مجلة التاريخ العربي، عدد ٢٠، جمعية المؤرخين المغاربة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٤٢٢/ ٢٠٠١، صص:٢٦٨.

١٩ – أحمد الأزمي، دراسات في تاريخ العلاقات المغربية الإفريقية خلال القرن ١٩ التراث الصوفي المشترك، الطبعة الأولى، دار مابعد الحداثة، فاس، ٢٠٠٩، صص:٣٠-٣١.

٢٠ – انظر: – الشيخ محمد أمين الشنقيطي، رحلة الحج إلى بيت الله الحرام، مرجع سابق .

في التواصل والاستعاضة عنه برحلات محدودة تتم تحت إشراف ومراقبة سلطات الاستعمارفي شكل وفد حاج يفسر الطابع الرسمي الذي أضفاه الاستعمار على هذه الرحلات التي أصبحت تمر من المراكز الكبرى لكل منطقة نفوذ استعماري، فأصبحنا نميز داخل الغرب الصحراوي الذي كان يشكل وحدة حضارية ومجالية بين وفد يخرج من منطقة النفوذ الفرنسي وآخر يضم حجاج المنطقة الأسبانية وينطلق من مدينة طرفاية بالجنوب المغربي، حيث نظمت اسبانيا رحلتين حجيتين على نفقتها سنتي ١٩٣٧ و١٩٣٨، فشملت هذه الأخيرة حجاج ينحدرون من مختلف مناطق الصحراء وقبائلها وتحت إشراف نائب الخليفة السلطاني الشيخ مربيه ربه، مما يعني التحكم في الرحلات الحجية التي تتم على نطاق ضيق يعكسه العدد المحدود للحجاج الذي لا يتجاوز الثلاثين[٢١]، كما أن بنية ومكونات الوفد تعكس استثمار الاستعمار للحج كمدخل لبناء المشروعية السياسية واستقطاب علماء وأعيان القبائل.

لقد أثرت نهاية الركب الحاج على التواصل والارتباط داخل المجال الواحد، كما أن تقلص مسار الحج ومدته أفضى إلى تقلص محطات الرحلة وحد من تأثيرها، حيث كان الوفد الحاج القادم من منطقة النفوذ الأسباني يخرج من طرفاية إلى المدينة المنورة، وذلك عبر الاتصال بالمحطات الآتية: لأس بالماس بجزر الكناري وقادس والجزيرة الخضراء وسبتة ومليلية إلى تطوان ثم العودة إلى سبتة ومنها إلى طرابلس وعبرها الانتقال إلى مصر، حيث اتصل الوفد ببورسعيد ثم السويس ومنها إلى مكة[٢٢].

أما بالنسبة لمنطقة النفود الفرنسي التي تشمل مجالات واسعة عملت فرنسا على محاولة ربطها إدارياً وثقافياً بمستعمراتها في إفريقيا الغربية خاصة السنغال، وفي هذا الإطار أصبح الركب الحاج يجتمع ويخرج من مدينة داكارإلى تتيريف بجزر الكناري ثم مرسيليا، حيث ينطلق الوفد في رحلته الحجية نحو الإسكندرية بمصر ومنها إلى السويس، حيث تنتهي الرحلة بالوصول للحجاز عبر الينبوع[٢٣] ، وبغض النظر عن اختلاف محطات كل رحلة، فإن مسارها يثبت نفس الملاحظات التي خلصنا إليها من تراجع عدد محطات الرحلة الحجية وتغير وسائلها وإطارها العام، وهو أمر سيكون له نتائج أكثر أهمية فيما يتعلق بالتواصل الذي ظل يربط أقطار العالم الإسلامي، والذي يمر عبر الرحلة التي استبطنت لدى المسلمين أبعاداً واهداف مركبة دينية وعلمية وصوفية[٢٤].

نافلة القول إن التحول الذي عرفته مسالك الحج ووسائله خلال الحقبة الاستعمارية يؤشر على تطور عميق شمل إطار التواصل وموضوعه، حيث سيستبطن هذا التواصل المتغيرات والتحولات التي طبعت التاريخ السياسي الإسلامي خلال القرن العشرين.

٥ الحج في السياسة الاستعمارية الفرنسية والأسبانية بالغرب الصحراوي:

---

[٢١]_ محمد سي، اسبانيا والصحراء ١٩٣٤_١٩٧٥: دراسة تاريخية واجتماعية، منشورات مركز الدراسات الصحراوية، دار ابي رقراق للطباعة والنشر،الرباط، ٢٠١٥، ص٨٣

[٢٢]– انظر: – ماء العينين ابن العتيق، الرحلة المعينية، مرجع سابق .

[٢٣]– محمد بن أحمد بن المحبوب، التواصل الثقافي بين المغرب وبلاد شنقيط، مرجع سابق ، ص:٢٧٢.

٢٤_ انظر: _ محمد بوزنكاض، التواصل بين بلاد البيظان والمشرق العربي خلال القرنين ١٩ و٢٠، منشورات مركز الدراسات الصحراوية، كلية الاداب والعلوم الانسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، ابي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ٢٠١٤

خلق الوافد الجديد شروطاً تاريخية جديدة انسحب تأثيرها على مختلف المجالات، فاتخذت هذه الشروط شكل مجموعة من الإجراءات التي تحتكم إلى هدف ومنطق موجه بطابع أمني يكمن في ضبط إيقاع الفعل بالمجال المعني وضبط حركية الأفراد داخل المجال المحدود وإعادة تنظيم هذه المجالات بما يحقق الأهداف الاستعمارية، مما يفسر تراجع اقتصاد البدو وظهور حواضر، حيث سيدفع هذا التحول البدو إلى استقرار قسري يستتبع تغيراً على مستوى نمط الإنتاج، وبذلك أنتجت السياسات الاستعمارية شروطاً تاريخية موجهة لأشكال الفعل السياسي والاجتماعي والثقافي.

بدأ تأثير الاستعمار على الرحلات الحجية مبكراً منذ احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠، حيث نقل صاحب الرحلة الحجية الموسومة بـ "المنى والمنة" جانباً من ذلك في قوله إن إعمال الرحلة عبر البر أصبح أمراً مستعصياً عندما أخذت فرنسا الجزائر، حيث كان من نتائج هذا الاحتلال أن أصبح البر أرضاً سائبة، إذ "صارت تلك الأرض إفريقية لا حاكم لها لأنها كانت في ايالة العثمانيين ولما أخذت النصارى الجزائر صارت أعراب تلك البلاد كلها قطاع الطريق، قلما يمر حاج ولا غيره إلا أكلوه ولم يتركوا له درهماً لكنهم لا يقتلونه"[٢٥]، فكان ذلك سببا في رفض الشيخ الطالب أحمد المصطفى ابن طوير الجنة اتخاذ الجزائر محطة له بسبب رفضه الخضوع لحكم النصارى[٢٦]، إذ ظلت ظاهرة الحرابة واقعة اجتماعية طاغية في تاريخ العالم الإسلامي وتعيق تدفق الحجاج واستمرارية التواصل الذي يمر عبر الرحلة، ذلك أن طريق الحج إلى بيت الله الحرام كانت" مستعصية بفعل حياة الأعراب الجاهلين من قطع للطريق واعتداء على الحقوق وفتك بالأرواح"[٢٧]، حيث يؤشر هذا الواقع على منسوب الحضور المادي للسلطة المركزية، مما يفسر تزايد ظاهرة الحرابة وقطع الطريق في مجالات معينة وفي سياق ضعف السلطة المركزية والانشغال بأوضاعها[٢٨].

لقد ميز هذا الواقع التاريخي أنظمة القرن ١٩ وتوج بخضوع الأقطار الإسلامية للاستعمار الذي ابتدع إجراءات أخرى قيدت حركية الحجاج مثل الكرانتين أو الحجر الصحي الذي بات يفرض على كل داخل لهذه البلدان، فقد نقل نفس العالم خبر خضوعه وصحبه للحجر الصحي أو الكرانتين" ثمانية أيام لتحققهم أي النصارى الذين الأمر في أيديهم أن ليس بنا بأس مع أن مصر عمر فيها الوباء المذكور"[٢٩]، وكذلك

---

[٢٥] _ الطالب احمد المصطفى بن اطوير الجنة،م.س، ص٢٠٦

[٢٦] _نفسه، ص٢٠٦

[٢٧] – محمد صالح ولد عبد الوهاب، فتح الوهاب على الحسوة البيسانية في الأنساب الحسانية، الطبعة الأولى، موريتانيا،١٩٩٣.، صص:١٢-١٣.

_ سجلت الباحث محمد المنصور تراجع ركب الحج بفعل الازمات التي طبعت التاريخ السياسي للعالم الاسلامي، حيثتأثر ركب حج الغرب الصحراوي في المرحلة الممتدة مابين مصر والمدينة المنورة بالتحولات التي ميزت علاقات المغرب مع المشرق من قبيل ما حدث أثناء حملة نابليون على مصر ما بين (١٧٩٨ و١٨٠١)، وما خلفه هذا الواقع على حجاج المغرب الاقصى وبفعل ما ترتب عن هذه الحملة من فراغ سياسي على خلفية تنامي الصراع على السلطة بعد خروج فرنسا، والذي انتهى بوصول محمد علي للسلطة في مصر، إلى جانب تأثر هذه العلاقات بالصراع الذي احتضنه المشرق ضد الوهابية عموما

انظر:محمد المنصور، المغرب قبل الاستعمار المجتمع والدولة والدين(١٧٩٢-١٨٢٢)، ترجمة: محمد حبيدة، الطبعة الأولى، منشورات المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،٢٠٠٦، ص:١٩٩ .

[٢٨]

[٢٩] – الطالب أحمد بن طوير الجنة، مرجع سابق ، ص:٤٨.

الشأن في الجزائر، حيث خضع الشيخ لمدة عشرة أيام[٣٠]، بالموازاة مع إجراءات لم تكن مألوفة لدى الحجاج المسلمين من تأكد من هوية الحاج ومتاعه.

كما سعى الاستعمار وسلطاته إلى مراقبة مختلف العمليات التي تتم داخل مناطق نفوذه بمافيها الأنشطة ذات الطابع الديني من خلال مراقبة الحج وتحويل أداء هذه الفريضة إلى إشراف الاستعمار، إذ كان طبيعيا أن تستقل كل مستعمرة بركبها الحاج، فانتهى التواصل الذي ظل يربط حجاج الغرب الصحراوي والذي كان يجسده التنقل في ركب واحد يحمل اسم الركب الولاتي أو الركب الشنقيطي، ذلك أن الخريطة الاستعمارية الجديدة التي قسمت المجال إلى مناطق نفوذ فرنسي وأسباني، ستنتج توزيعاً جديداً، حيث أصبحنا نتحدث عن ركب حج منطقة النفوذ الفرنسي ينطلق من داكار ويجمع الحجاج التابعين لفرنسا من موريتانيا والسنغال[٣١]...، وآخر يخرج من حاضرة طرفاية ويضم حجاج المنطقة الأسبانية، بما يعنيه ذلك من تغير الإطار العالم الذي يتم فيه هذا التواصل، حيث سعت سلطات الاستعمار إلى تثبيت التقسيم الاستعماري من خلال استقلال كل منطقة بوفدها الحاج، الأمر الذي أسفر عن انقطاع التواصل والتفاعل بين حجاج القطر، وتراجع دور الحج في تدفق المؤثرات الفكرية والروحية بالنظر لكون هذه الرحلات أصبحت تتم تحت إشراف تام ومباشر لقوى الاستعمار التي تمارس السيادة الفعلية ميدانياً، مما يفسر اختفاء مصطلح الركب الحاج وحل محله وصف الوفد الحاج، مما يعني محاولة إضفاء الطابع الرسمي على الرحلات الحجية التي أمست أداة استثمرها الاستعمار للحصول على المشروعية السياسية واستمالة الأعيان وكبار القوم، مما يفسر بنية الوفد الحاج الذي تحدثت عنه الرحلة المعينية والتي تضم مجموعة من شيوخ القبائل الخاضعة للنفوذ الأسباني، حيث وفرت لهم أسبانيا مركباً "صنعته الدولة الإسبانيولية وأعدته للركوب إلى حج بيت الله الحرام...، متحملة جميع لوازمهم من كراء وزاد وضرائب وما تدعو له الحاجة في طريقهم ذهاباً وإيابًا[٣٢]، كما عملت فرنسا بباقي المجال على " تيسر الحج وسائر العبادات"[٣٣]، واستندت على هذا المعطى في تبرير استعمارها للمنطقة، حيث أثمرت هذه المساعي حصول الاستعمار على دعم طائفة من العلماء مثل الشيخ سيديا الذي دافع عن دور الاستعمار في إقرار الأمن وتيسر العبادات.

وبذلك طغى المعنى السياسي على الرحلات الحجية خلال الحقبة الاستعمارية سواء في إطارها العام أو موضوعها، وهو الأمر الذي تعكسه الأولوية التي أعطاها الاستعمار للرحلات الحجية التي حرص على التحكم فيها وضبطها والتقليل من أسباب التواصل والتفاعل بين المسلمين، مما يفسر تغير مسار الحج وتقلص المحطات التي كان يمر عبرها الركب الحاج الذي كان يخترق حواضر واقطاراً متعددة غير أن الوفد الحاج أصبح خلال القرن العشرين يمر عبر البحر بأقطار محدودة.

---

[٣٠]- المرجع السابق نفسه، ص:١٠١.

[٣١]محمد بن أحمد بن المحبوب، التواصل الثقافي بين المغرب وبلاد شنقيط، مرجع سابق ، ص: ٢٧٢.

[٣٢]- ماء العينين ابن العتيق، الرحلة المعينية، مرجع سابق ، ص: ٧٢.

[٣٣]- سيدي بابا بن الشيخ سيدي، إمارتا ادوعيش ومشظوف: دراسة في التاريخ السياسي الموريتاني، تحقيق: ازيد بيه بن محمد محمود، الطبعة الثالثة، المعهد التربوي، نواكشوط، ١٤٢٣/٢٠٠٣، ص:٤٥.

إجمالا فقد أفرزت اللحظة الاستعمارية شروطاً جديدة باعثها السياسات الهادفة إلى ضبط حركية الأفراد والمؤثرات المهددة للأهداف الاستعمارية، مما أفضى إلى تقلص نسبي لعدد الحجاج وتغير الإطار العام الذي يتم في إطاره الحج الذي بات أداة للمشروعية السياسية واستمالة الشيوخ وكبار القوم، كما تقلصت المحطات التي يمر عبرها الوفد الحاج، وهي محددات تفسر كثافة حضور المعنى السياسي في الرحلات الحجية.

الفصل الثاني: الرحلة الحجية في التاريخ السياسي للغرب الصحراوي

تقدم الرحلات الحجازية مادة معرفية بحمولة تاريخية غنية تفيد في إنتاج التراكم الكفيل بالمساهمة في إعادة كتابة التاريخ العربي خاصة في بعده الاجتماعي والثقافي، فعادة ما شكلت الرحلات الحجية لحظة انتقالية في مسار للأفراد والأقطار الإسلامية منذ الحقبة الوسيطة، بالرغم من تجاهل الباحثين لدور الحج كتجربة استثنائية في مسار الأفراد وتساهم في تشكل و صياغة المشاريع والتصورات السياسية التي خلقت واقعاً مهماً في تاريخ مجال الغرب الإسلامي، وفي هذا الإطار نروم لفت الانتباه لتأثير رحلات الحج على التاريخ السياسي للغرب الصحراوي بفعل ما واكبها من انفتاح على تجارب وتيارات سياسية وفكرية بالمشرق.

١ الرحلة الحجية في التاريخ السياسي للغرب الصحراوي:

لقد كسرت الرحلات الحجية التي تخرج من الصحراء، بالرغم من افتراض قلتها، الرتابة التي يبدو أن المجال ظل يعيشها بفعل الموقع النائي وامتداده داخل الصحراء الكبرى، حيث ظلت أداة للانفتاح على محيط المجال ونقل المؤثرات المختلفة بما فيها المؤثرات الفكرية الواردة في شكل أفكار وتيارات وطرق صوفية وغيرها، كما كانت الرحلة قناة للتعرف على التحولات السياسية والتقنية التي أصبحت تعيش على إيقاعها أقطار العالم الإسلامي خاصة مصر والحجاز، فقد سجلنا بداية هذا التحول منذ مطلع القرن١٩، حيث سجل ابن طوير الجنة، بأسف يعكس نظرته المحافظة، بداية اختلال موازين القوى في العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة لصالح هذه الفئة الأخيرة التي باتت تتمتع بامتيازات كثيرة بما يفسر انتقال القرار السياسي والاقتصادي للأجانب، بالموازاة مع احتلال الجزائر الذي أرخت لجزء من وقائعه رحلة "المنى والمنة" وحاولت البحث في أسبابه مستندة على رؤية الفقيه التي تنهل من بنية الكرامة[٣٤].

إن أهمية الرحلات الحجية تجعلها تقدم مادة غنية تصلح لكتابة تاريخ المشرق العربي وصورته في ذاكرة المغارب، حيث تتسم هذه المادة بطابعها الطريف والاستثنائي بفعل ملامستها لجوانب تهم التاريخ الاجتماعي والثقافي والاقتصادي بما يجعلها توثق للتحولات الدقيقة التي أرخ لها الحجاج بخلفية مقارنة بين المشرق والمغرب وبرؤية ناقضة، غير أننا نسجل كذلك دور هذه الرحلات في بلورة مواقف وتصورات عدد من الجاج العلماء سواء فيما يتعلق بامتلاك هوية صوفية أو فكرية سيكون لها دور في توجيه التاريخ المحلي كماهو بالنسبة لدور الرحلة في بلورة المشروع المرابطي لدى يحيبن إبراهيم الكدالي، وهو المشروع الذي تجاوز الجانب السياسي الذي كان من نتائجه تشكل الدولة المرابطية التي

---

[٣٤] _ الطالب أحمد المصطفى بن أطوير الجنة،م.س، ص٢٠٨

بلغ تأثيرها الأندلس وشمل مجموع الغرب الإسلامي والسودان الغربي إلى رسم الخريطة المذهبية التي ظلت تشكل الأساس المذهبي والعقدي للمجالالمذهب المالكي والعقيدة الأشعرية، ويبرز هنا دور الرحلة الحجية في محاولة التأصيل لكل تجربة سياسية في الغرب الصحراوي واإسلامي ككل، حيث عادة ما تؤرخ الرحلة لنقطة التحول في مسار الشخص الذي يتحول إلى فاعل في هذا المسار، وهو الأمر الذي يجعلنا نستحضر نماذج مختلفة مثل محمد بن تومرت الذي وضع أسس الدولة الموحدية وعقيدتها المذهبية.

وبالموازاة مع دورها في تاريخ المغرب عامة كان للرحلة الحجية دور كبير في تاريخ الغرب الصحراوي، حيث نستحضر، في هذا الإطار، الوقع الكبير للرحلة الحجية للشيخ محمد الحافظ العلوي الذي انتهت رحلته بنقل الطريقة التجانية التي كان لها دور كبير في التاريخ الثقافي والسياسي للصحراء وإفريقيا الغربية التي تحولت إلى موضوع للصراع بين مشروعية صوفية وسياسية قديمة جسدتها الطريقة القادرية وامتداداتها ومشروعية صوفية /تجانية وسياسية وافدة مثلتها الطريقة التجانية التي شكلت خلفية لتبلور حركة عمر بن سعيد فوتي.

كما لعبت الرحلة الحجية للشيخ محمد بن حبيب الله لمجيدري دوراً بارزاً في امتلاكه لمشروع فكري يستبطن في الغالب أبعاداً سياسية تتجلى في فكر التيار الوهابي الذي أوصله الشيخ لمجيدري للغرب الصحراوي[٣٥]، فكان له وقع كبير لعل أقرب تجلياته تجسدت في التفاعل والصراع الفكري الذي خلقه الفكر السلفي في مواجهة الاتجاه الفقهي السائد محلياً وفي مواجهة المتصوفة من جهة ثانية.

لقد ظلت الرحلة الحجية مناسبة للانفتاح على تجارب سياسية وأنساق فكرية مختلفة قد تؤشر على تحول في مسار الفرد يفضي إلى بلورة أفق سياسي يوجه تاريخ منطقة ما، وهو ما يجعلنا نفترض استمرارية تأثير المشرق في توجيه تاريخ المغرب الإسلامي ضداً على الاعتبارات التي تقول بنهاية تأثير المشرق في توجيه التاريخ الفكري والسياسي للمغرب الإسلامي في سياق تحقيق هذا الأخير لتطور أهله لتحقيق نوع من الندية في علاقاته بالمشرق، وهو تأثير قد لا يتخذ شكلاً مباشراً بقدر ما تؤشر معطياته على دور الرحلة الحجية في توجيه قناعات بعض العلماء.

٢ الرحلة الحجية في المشروع السياسي للشيخ ماءالعينين:

إن قراءة التاريخ السياسي للعالم الإسلامي لا تتحقق دون البحث في امتدادات هذا التاريخ وتحولاته، حيث نعتبر أن الانفتاح على المشرق أسهم في توجيه عدد من التحولات السياسية الكبرى التي عرفها المغرب وبغض النظر عن درجة هذا التأثير، فقد ظل حاضراً وتجاهله يحول دون دراسة الظاهرة في عمقها وامتداداتها، كما أن الحديث عن دور الحج يحيل على الرحلة ومسارها، وفي هذا الإطار تميزت بداية توغل الاستعمار بتشكل حركات مقاومة منها حركة الشيخ ماء العينين الذي وفد إلى جنوب المغرب من موريتانيا وتشكلت حركته في الصحراء، حيث كان لهذا المشروع السياسي الجهادي من الأهمية ما جعلته موضوعاً لدراسات وأبحاث متراكمة لم تف بغرض الإحاطة بكل حيثيات تشكل وتطور

---

[٣٥] ـ محمدعبدالله بن البخاري الفلالي، الحياة العمرانية لاهل بارك الله، نسخة في مكتبة المامون البخاري الخاصة، بوجدور، ص١٢١

هذه الحركة بل ولم تبحث في أصول هذه الحركة وبداياتها؛ بحيث اكتفت هذه الدراسات ببحث سيرة وتكوين الشيخ ماءالعينين بن محمد فاضل بن مامين الذي كانت له رحلة حجية سنة ١٨٥٨، حيث نلفت الانتباه لضرورة بحث دور الرحلة الحجية في بلورة هذا المشروع السياسي للشيخ ماءالعينين، إذ كانت للشيخ لقاءات بمناسبة مرحلة العودة من الحج، فخلقت له أنصار كثر من قبائل الصحراء الأطلنتية، حيث لقي الشيخ في عودة علماء وأعيان من قبائل مختلفة مثل أزوافيط والركيبات وايتوسى وايت لحسن وغيرهم[٣٦]، إذ لا نستبعد أن يكون التأييد الذي حصل عليه بمناسبة رحلته الحجية عاملاً في اختيار وجهة الساقية الحمراء كمجال للاستقرار وتنزيل مشروعه الذي بدأ بتأسيس حاضرة السمارة التي تحولت إلى قاعدة جهادية وصوفية[٣٧]، وهو ما يثبت أهمية الرحلة في اكتشاف أوضاع البلاد السياسيةالموسومة بالتشردم والتفرقة والصراعات القبلية والمذهبية، مما يفسر الأساس الذي وضعه الشيخ لطريقته الصوفية القائمة على المؤاخاة بين الطرق الصوفية وقبلياً استطاع الشيخ ماءالعينين توحيد قبائل الصحراء وخلق شروط عصبية دينية تتجاوز النزعة القبلية التي ظلت توجه التاريخ السياسي المحلي، بما يعنيه ذلك من أن الرحلة الحجية قد زودت الشيخ ضمنياً بأسس ومرتكزات مشروعه السياسي، كما أن الشيخ ماء العينين حرص بمناسبة رحلته الحجية على ملاقاة السلطان، وهو الحدث الذي سيؤسس لعلاقة ممتدة ومتواصلة ربطت الشيخ بالسلاطين العلويين منذ سيدي محمد بن عبد الله وصولا للمولى عبد الخفيظ ومرورا بالحسن الاول والمولى عبد العزيز، وشكل هذا الدعم أساس مشروعية سياسية ودعم مادي سياسي للشيخ ماءالعينين وأبنائه بعده أهلهم لقيادة حركة سياسية في مواجهة الاستعمار اعتماداً على الجهاد الذي أعطى المضمون الديني للحركة السياسية التي يبدو ان الرحلة الحجية كان لها دورا بارز في تشكل ملامحها انطلاقاً من معينة ما آل إليه وضع المسلمين، فقد اقتنع الشيخ بمناسبة رحلته الحجية بضرورة الجهاد وهاجم الذين يقولون بالعكس في قوله إن "العجب كل العجب ممن يدعي العقل ويشك أنه لا ضرر على المسلمين في خروج النصارى عليهم، وليس هذا إلا من جهله لما فعل النصارى بخروجهم على المسلمين في كل الأيام، كما وقع في الأندلس قديماً وما وقع في الجزائر، وما وقع في الإسكندرية ومصر واسطانبول حديثاً وغيره مما يطول بنا جانبه في كل بلاد المسلمين حكمها النصارى، لعنهم الله، بالأمان، وبعد ذلك استولوا عليها كل الزمان"٣٨، وينطلق الشيخ ماء العينين في هذا التصريح من تجربته في معاينة واقع التكالب الاستعماري الأروبي على الأمة الإسلامية من خلال ما لاحظه بمصر خلال زيارته الحجية سنة ١٨٥٨ من تنامي نفوذ الأجانب وسيطرتهم على البلاد واتساع امتيازاتهم في قناة السويس وكل المصالح مثل السكك الحديدية والتلغراف والورش الكبرى، وتمييز

---

[٣٦]_ انظر: الشيخ ماء العينين، الرحلة الحجازية، تحقيق: ماء العينين مربيه ربه، الطبعة الأولى، منشورات مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء التراث والتنمية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ٢٠١٠.

[٣٧]_أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مرجع سابق ، ص:٤٣٩.

[٣٨]– العربي واحي، معالم من جهاد الزاوية المعينية بالصحراء المغربية، ندوة علمية حول جهاد الصحراويين من أجل استقلال المملكة ووحدتها الترابية، المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، صص:١٧٧-١٨٧، ص:١٨.

الباشوات والأتراك للأجانب من اليهود والنصارى على المسلمين في العمل والأجور[٣٩] إلى غير ذلك من التحولات التي تترجم واقع الأزمة التي تتخبط فيها الأمة الإسلامية في مواجهة المد الاستعماري.

لقد خلف الشيخ ماءالعينين تراكماً معتبراً شمل الشعر والفقه والتصوف...، وهو إنتاج تنبغي قراءته على ضوء المؤثرات الفاعلة في إنتاجه والتي كانت الرحلة إحدى قنواتها، حيث ظلت هذه الحلقة مهملة في دراسة هذا التراكم وهذه الحركة السياسية كنموذج للتيارات السياسية التي تفاعلت في تشكلها مؤثرات محلية وأخرى مشرقية وغربية أحياناً، مما يفترض البحث في امتدادات هذه الحركات الفكرية والسياسية التي وإن لم تعد تستمد أصولها مباشرة من المشرق، فقد ظلت تستبطن هذه المؤثرات في تبلور ماهيتها أو خلق أفقها السياسي، وهو أمر ينسحب على حركات سياسية أخرى إلى جانب حركة الشيخ ماءالعينين.

٣ موضوعات التواصل العربي ووسائله خلال القرن العشرين: (الغرب الصحراوي أنموذجاً):

استشعرت سلطات الاستعمار خطورة التواصل والحج على سياساتها بالنظر للمنحى الذي اختطته هذه الرحلات الحجية التي ترسخ المشترك الثقافي والسياسي داخل الأمة الإسلامية وتتيح تفاعلاً واسعاً بين علماء وفقهاء يفضي إلى تعميق عداء المسلمين للاستعمار والتوعية بأهدافه الحقيقية، لذلك تحول الاستعمار إلى موضوع بارز في التواصل الذي يتم بين المسلمين بمناسبة الحج، حيث عمل العلماء على استغلال مناسبة الحج للتنسيق في شأن سبل مواجهة مخططاته، وفي هذا الإطار كان الشيخ مربيه ربه على اتصال دائم بخليفة السلطان مولاي الحسن بن المهدي الذي التقى به الشيخ مربيه ربه خلال رحلته الحجية في تطوان، كما التقى بزعماء الحركة الوطنية في الشمال مثل عبد الخالق الطريس وعبد السلام بنونه وعلال الفاسي وغيرهم من رجال السياسة وزعماء الحركة الوطنية[٤٠]، واتخذت هذه الحركة السياسية شكل لقاءات تنسيقية عقدها زعماء الصحراء بالحواضر التي مروا عبرها في رحلاتهم الحجية، وكان ذلك سنة ١٩٣٨، إذ انفتح هؤلاء بمناسبة هذه الزيارات على الفكر السلفي الإصلاحي الذي انتشر في تطوان وغيرها[٤١]. كما أثبت صاحب الرحلة المعينية خلال الثلاثينات من القرن العشرين خبر تكرار اللقاءات التنسيقية التي جمعت الحجاج المسلمين وبحضور الحجاج من الصحراء، مما يفسر استبطان الرحلة الحجية خلال الحقبة الاستعمارية لأهداف سياسية بالموازاة مع الأهداف الدينية والعلمية التي ظلت تميز هذا التواصل.

وقد بدأ تأثير هذه اللقاءات منذ القرن ١٩، حيث تخللت الرحلات الحجية لقاءات توجت باتصال علماء المغرب بمصلحين وسياسيين كبار، وفي هذا الإطار تزامن وصول الشيخ ماء العينين في رحلته الحجية لمصر خلال الخمسينيات من القرن التاسع عشر مع دعوة بعض المصلحين إلى تكوين رابطة إسلامية

---

[٣٩]- الطالب أخيار بن مامينا، الشيخ ماءالعينين: علماء وسلاطين في مواجهة الاستعمار الأوربي، مرجع سابق ، ص:٣٣.

[٤٠]- ماء العينين النعمة وأحمد بومزكو، جهاد الشيخ مربيه ربه ومقاومته للتدخل الأجنبي في الجنوب المغربي بين التنظير والممارسة، مرجع سابق ، ص:٢١.

[٤١]- ماء العينين بن العتيق، الرحلة المعينية، تحقيق: محمد ظريف، مرجع سابق ، ص:٨١.

تكون إطاراً لتوحيد الشعوب الإسلامية، وهي الفكرة التي تبلورت في مصر منذ منتصف هذا القرن، وكان من أوائل الدعاة لها الإمام محمد السنوسي، وهو الأمر الذي تبناه السلطان عبد الحميد الثاني الذي وصل للحكم منذ سنة ١٨٧٦ من خلال تأسيس الجامعة الإسلامية[٤٢]، إذ لم تكن القوى الاستعمارية لتنظر بعين الرضى لهذه التطورات ودورها في تحريض الحجاج على معاداة الاستعمار وتشكيل تنظيمات لمواجهته وتدعيم الاتجاه المقاوم للاستعمار بإسباغ بعد قومي على إطاره في سياق الدعم الذي قدمته الدولة العثمانية للجامعة التي ستشتغل تحت اطار المشروعية السياسية للأتراك.

كما شكلت الرحلات الحجية مناسبة للانفتاح على أفكار التيارات السياسية والفكرية كماهو الشأن بالنسبة للفكر السلفي الوهابي الذي تسرب إلى الغرب الصحراوي عبر الحجاج خاصة الشيخ محمد بن حبيب الله المجيدري الذي أحدث حركية فكرية على أرضية التدافع بين التيارات الفكرية التي شكلت الثقافة العالمة بالصحراء، واستمر دور الرحلات الحجية في ضخ هذه المؤثرات خلال النصف الأول من القرن العشرين، حيث شكلت الرحلة الحجية التي قادت وفداً من الصحراء لتطوان مناسبة للانفتاح على الفكر السياسي الإصلاحي الذي بدأ يتبلور في شكل حركة سياسية مناهضة للاستعمار مرتكزة على أساس أيديولوجي يشكله الفكر السلفي[٤٣].

كما تجدر الإشارة إلى أن تطور الصحافة أتاح خلق شروط جديدة للتواصل العربي العربي وسهل تدفق التيارات الفكرية، كما أن إضافة هذا المعنى السياسي للتواصل والحج كان باعثاً دفع الاستعمار إلى تشديد الرقابة على رحلات الحج ومحاولة التحكم فيها وتوجيهها بما يخدم استمرارية الاستعمار وسياساته

خاتمة:

نافلة القول أن التواصل حظي بأهمية كبيرة كموضوع للدراسة والبحث التاريخي، إذ شكلت الرحلة الحجازية موضوعاً للمقاربة الأدبية والتاريخية باعتبارها منتجاً أدبياً يستبطن حمولة تاريخية لم تستنفذ بعد امكاناتها في دراسة تاريخ العالم الإسلامي خاصة في أبعاده الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. وقد كانت أقطار الغرب الإسلامي أكثر إقبالاً على إعمال الرحلة وتدوينها وتوثيق وقائعها بشكل يجعل ما تراكم منها أفقا لدراسة وكتابة تاريخ المشرق الاسلامي ونقل صورة هذه الأقطار في ذاكرة المغاربة ومساهمة هؤلاء في التطور الثقافي للمشرق والتأريخ للتحولات الكبرى التي طبعت تاريخ العالم الإسلامي كماهو الشأن بالنسبة للاستعمار الذي أفرزت سياساته تحولاً عميقاً شمل مجموع بنيات المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والمجالية، فكان طبيعياً أن ينسحب تأثير السياسات الاستعمارية على التواصل والتفاعل بين أقطار العالم الإسلامي، حيث انتبهت سلطات الاستعمار إلى خطورة هذا التواصل، الذي يشكل الحج مناسبة له، في تشكل مواقف وتوجهات معادية لمصالح الاستعمار، فعملت عبر إجراءات مختلفة على محاولة التحكم في هذه الرحلة وضبط قنواته مما غير إطار هذا التواصل وظروفه وموضوعاته، وهو موضوع يستوجب تعميق البحث في شروط وأشكال التواصل في التاريخ الراهن في إطار الدولة الحديثة.

---

[٤٢]– الشيخ ماء العينين: علماء وأمراء في مواجهة الاستعمار الاروبي، (جزأن)، مكتبة دار الأمان، الرباط، الجزءالأول، د.ت، ص:٣٣.

[٤٣]– محمد سبي، مرجع سابق ، ص٦٣

مراجع البحث:

محمدوبنمحمدن،المجتمعالبيضانيفيالقرنالتاسععشر :
قراءةفيالرحلاتالاستكشافيةالاروبية،معهدالدراساتالإفريقية،جامعةمحمدالخامس،الرباط،٢٠٠١.

Paul Marty; «Étude sur l'islam et les tribus maures: les Brakna", E. Leroux, Paris, 1921 –

الطالباحمدالمصطفىبنأطويرالجنة،رحلةالمنوالمنة،تحقيقودراسة: حماهاللهولدسالم،دارالكتبالعلمية،بيروت، ٢٠١٣١٥٣.

عبدالرحمانبنخلدون،مقدمةابنخلدون،تحقيق: محمدصديقالمنشاوى،دارالفضيلةللنشر ،القاهرة،٢٠٠٥

أحمدبنالأمينالشنقيطي،الوسيطفيتراجمأدباءشنقيط،الطبعةالرابعة،مكتبةالخانجيبالقاهرةومكتبةمنيرموريتانيا،مطبعةالمدني،مصر ، ١٩٩٩/١٤٠٩.

ماءالعينينبنالعتيق،الرحلةالمعينية،تحقيقوتقديم:
محمدالظريف،الطبعةالأولى،دارالنشروالتوزيع،المؤسسةالعربيةللدراساتوالنشر ،بيروت،لبنان، ٢٠٠٤

١_ محمدالمامي،جمانالبادية،مخطوطفيخزانةابولدمحماديالخاصة،نواكشوط

الخليلالنحوي،"بلادشنقيط... المنارةوالرباط"،المنظمةالعربيةللتربيةوالثقافةوالعلوم،تونس، ١٩٨٧.

أحمدبنالعربي،الرحلةالوزانيةالممزوجةبالمناسكالمالكية،مخطوطبمؤسسةعلالالفاسي،عدد ٣٤٩،الرباط.

الطالباحمدالمصطفىبناطويرالجنة،رحلةالمنوالمنة،تحقيقودراسة: حماهاللهولدسالم،مرجعسابق

الشيخمحمدأمينالشنقيطي،رحلةالحجإلىبيتاللهالحرام،تحقيق: محمدالمختاربنمحمدأمين،طباعةونشردارابنتيمية،القاهرة،رجب ١٣٩٩.

فتحالشكورفيمعرفةأعيانعلماءالتكرور "،وكتابمحمدبلوالمعنونبـ " إنفاقالميسورفيتاريخبلادالتكرور ".

محمدولدمحبوب،التواصلالثقافيبينالمغربوبلادشنقيط،قراءةفيمقرراتالمحضرةورحلاتالعلمخلالالقرنيين ١٢ و١٣هـ،مجلةالتاريخالعربي،عدد ٢٠،جمعيةالمؤرخينالمغاربة،مطبعةالنجاحالجديدة،الدارالبيضاء، ١٤٢٢/ ٢٠٠١.

– أحمدالأزمي،دراساتفيتاريخالعلاقاتالمغربيةالإفريقيةخلالالقرن ١٩
التراثالصوفيالمشترك،الطبعةالأولى،دارمابعدالحداثة،فاس، ٢٠٠٩.

_ محمدسبى،اسبانياوالصحراء ١٩٣٤_١٩٧٥:
دراسةتاريخيةواجتماعية،منشوراتمركزالدراساتالصحراوية،دارابيرقراقللطباعةوالنشر ،الرباط، ٢٠١٥

محمدبوزنكاض،التواصلبينبلادالبيظانوالمشرقالعربيخلالالقرنين ١٩
و ٢٠،منشوراتمركزالدراساتالصحراوية،كليةالادابوالعلومالانسانية،جامعةمحمدالخامس،الرباط،ابيرقراقللطباعةوالنشر ،الرباط، ٢٠١٤

محمدصالحولدعبدالوهاب،فتحالوهابعلىالحسوةالبيسانيةفيالأنسابالحسانية،الطبعةالأولى،موريتانيا،١٩٩٣.

محمدالمنصور،المغربقبلالاستعمارالمجتمعوالدولةوالدين(١٧٩٢-١٨٢٢)،ترجمة:
محمدحبيدة،الطبعةالأولى،منشوراتالمركزالثقافيالعربي،الدارالبيضاء،٢٠٠٦.

سيديبابابنالشيخسيدي،إمارتاادوعيشومشظوف: دراسةفيالتاريخالسياسيالموريتاني،تحقيق:
ازيدبيهبنمحمدمحمود،الطبعةالثالثة،المعهدالتربوي،نواكشوط، ١٤٢٣/٢٠٠٣.

محمدعبداللهبنالبخاريالفلالي،الحياةالعمرانيةلاهلباركالله،نسخةفيمكتبةالمامونالبخاريالخاصة،بوجدور،

الشيخماءالعينين،الرحلةالحجازية،تحقيق:
ماءالعينينمربيهربه،الطبعةالأولى،منشوراتمؤسسةالشيخمربيهربهلإحياءالتراثوالتنمية،مطبعةالمعارفالجديدة،الرباط، ٢٠١٠.

العربيواحي،معالممنجهادالزاويةالمعينيةبالصحراءالمغربية،ندوةعلميةحولجهادالصحراويينمنأجلاستقلالالمملكةووحدتهاالترابية،المد
ندوبيةالساميةلقدماءالمقاومينوأعضاءجيشالتحرير،كليةالآدابوالعلومالإنسانية،جامعةالقاضيعياض،مطبعةالمعارفالجديدة،الرباط،
صص:١٧٧-١٨٧٨.

ماءالعينينالنعمةوأحمدبومزكو،جهادالشيخمربيهربهومقاومتهللتدخلالأجنبيفيالجنوبالمغربيبينالتنظيروالممارسة،مرجعسابق،ص:٢١
.

ماءالعينينبنالعتيق،الرحلةالمعينية،تحقيق: محمدظريف،مرجعسابق.

الشيخماءالعينين: علماءوأمراءفيمواجهةالاستعمارالاروبي، (جزأن)،مكتبةدارالأمان،الرباط،الجزءالأول،د.ت،.